

بدايات الحركة النقابية في اوروبا

لقد صاحب نهوض الرأسمالية في بريطانيا وفي بلدان اوروبا ازدياد هائل في عدد العمال وعليه بدأ العمال يشعرون بوجوب النضال ضد الرأسمالية إذا هم أرادوا الاستمرار في الحياة. ولهذا فإن مرحلة تأسيس النقابات في بريطانيا انعكست على تكوين النقابات وتأسيسها في الدول الرأسمالية الاوروبية وبعض المستعمرات.

صحيح ان اوروبا كانت متأخرة صناعياً عن بريطانيا لكنها عملت جاهدة لتصفية النظام الاقطاعي واقامة النظام الرأسمالي ، ولعبت الثورة الفرنسية والحروب البونابرتية التي حملت الدمار والشقاء للبلدان الاوروبية دوراً بارزاً في سقوط الاقطاعية، وساعدت على نمو الرأسمالية، فقامت الدول الرأسمالية الحديثة غرب اوروبا، ولكن في حينها لم تكن لا ألمانيا ولا إيطاليا مهياًتين تماماً بسبب تجزئتهما إلى دويلات عديدة.

ان قوانين نشوء الرأسمالية وانتصارها حتمت بالضرورة ايجاد القوى الملائمة لظهورها، تلك القوى التي قامت الرأسمالية نفسها بتحريرها من العلاقات القديمة، ولكن في الوقت نفسه استعبدها، وبرهنت قبل اي شيء بأنها " أداة لامتصاص الثروة التي تنتج بأيدي العمال وتستقر في جيوب مالكي الانتاج الاجتماعي ، الرأسماليين – مالكي الصناعات والأرض، والبنوك والمواصلات ووسائل النقل"

فالرأسمالية حررت الفلاحين من العلاقات الاقطاعية الجائرة والعمال المأجورين من الجمعيات الحرفية – وجعلتهم وفق إرادتهم يختارون أعمالهم بأنفسهم، إلا أنها في الوقت ذاته، استخدمتهم بشكل فظ واستعبادي، منحتهم الإيجور لتجديد طاقاتهم ولتعود فتسرق منهم قوة عملهم " ان الطبقة العاملة لم تعان في أي وقت مثل ما عانته بظل ظروف يوم العمل الطويل والسكن المزري، وانخفاض أجر النساء العاملات وتشغيل الأطفال المخجل وإرهاب أرباب العمل للعمال في جميع أماكن العمل"

وعليه راح العمال ولأجل الدفاع عن أنفسهم يؤسسون جمعياتهم أو " اتحادات المساعدة المتبادلة" وطوروا هجومهم، ومارسوا النضال بأشكال متعددة، فمن تحطيم الآلة إلى الاضرابات أو التمردات، والانتفاضات، وأخذ العمال يفكرون ويبحثون عن طريق يؤدي لتصفية النظام الرأسمالي، وإقامة مجتمع عادل بدلاً عنه، مجتمع بدون استغلال، يحفظ حقوقهم ويصون كرامتهم.

ومثلما أشرنا مسبقاً، فقد تأسست النقابات في اوروبا تحت تأثير تأسيس النقابات في بريطانيا، ونجد من الضروري تناول بعض البلدان الأوروبية وتاريخ تأسيس النقابات فيها بشكل موجز وبخاصة أن ظروف التأسيس كانت متشابهة تقريباً ليس على نطاق اوروبا فحسب بل في بلدان عديدة في العالم.

1 – ألمانيا

في ألمانيا كانت الجمعيات الحرفية تضم أكثرية العمال، وهم يعملون أيضاً " كعمال زراعيين أو صناع أو أجراء"

وظهرت المعامل من الجمعيات الحرفية في العقد الرابع من القرن الثامن عشر، وتطورت السكك الحديدية، وتصاعدت وتيرة ازدياد عدد العمال في مناجم الفحم في بروسيا حتى وصل زهاء 29,907 عامل عام 1860م.

ولأهمية المكائن البخارية لتطوير الصناعة، فقد " ارتفع عدد المكائن البخارية 4582 ماكينة، ما عدا قاطرات السكك الحديدية" أما العمال فكانوا يتقاضون اجوراً واطئة جداً، لا تكفي لسد رمقهم ولا تلبي أبسط الحاجات المعيشية، فعاشوا في فقر مدقع وبؤس شديد وفي بيوت لا تصلح لسكن البشر وحرموا من أي ضمان اجتماعي أو حرية الاشتراك في الانتخابات وعملوا من 12 - 16 ساعة في اليوم/ كل هذه الامور دفعت العمال رويداً رويداً للدفاع عن حقوقهم .

وأول خطوة قاموا بها هي تكوين " الجمعيات والاتحادات" ولا سيما في المراكز الصناعية. لقد اعتبر العمال تأسيس هذه الجمعيات والاتحادات هو الطريق الصحيح لحمايتهم من جشع الاستغلال الرأسمالي.. ولم يكتفوا فقط بتشكيل الاتحادات بل تطورت عندهم ظاهرة الاضرابات، فقاموا باضرابات عديدة، وفي أثناء البدايات الأولى لكفاحهم توجهوا إلى تحطيم الآلات والمكائن واعتقدوا أيضاً أنها سبب تدري لأوضاعهم على جميع الصعد.

لقد تكونت النقابات ما بين اتحادات المهن في المراكز الصناعية المختلفة. لكن ظهرت نقابتان على النطاق الوطني وهما نقابة " عمال المطابع ونقابة عمال التبغ" وعقد أول مؤتمر لهما عام 1848م ، وأصبحت منظمة جماهيرية واسعة قدر عدد المنتسبين لها عام 1850م حوالي 250 مجموعة نقابية محلية، أثناء ذلك قامت بنشر برنامجها الذي لم يكن بامستوى المطلوب لحركة نقابية صافية بل أخذ على هذا البرنامج " دعوته إلى تكوين لجان مختلفة بين أرباب العمل والعمال لتدارس شروط الاجور والعمل"

لقد ظهر بعد ذلك مدى تأثير مثل هذه الاتجاهات على الحركة النقابية حيث ترعرعت الأفكار الإصلاحية والتوفيقية، واتخذت مسارات حادة في انعطافها إلى اليمين مما أضر الحركة العمالية النقابية الالمانية. على ضوء التوسع الذي حصل على هذه الحركة تم تأسيس " اتحاد الطباعين الوطني وجمعية عمال السكائر الالمانية عام 1848م" وانتشر تأسيس النقابات فشعرت الحكومة بخطورتها وراحت تتحين الفرص للإجهاز عليها، وتسنى لها ذلك في تموز 1854م، وافلحت في حل جميع النقابات والمنظمات التي تتبنى " أهدافاً سياسية اشتراكية".

وقامت بتحريم الاضرابات لحماية مصالح الرأسماليين الألمان، واجبار العمال على السكوت والرضوخ وعدم الدفاع عن مصالحهم وأوضاعهم المتدهورة.

لكن الطبقة العاملة الالمانية لم تترك ساحة النضال وشتت الإضرابات العديدة متحدية قرارات الحكومة وقوانين المنع الظالمة التي أصدرتها الهادفة إلى شل قدرة العمال في تنظيم انفسهم في منظماتهم الخاصة بهم.

اتجه العمال لتكوين " منظمة نقابية وطنية واحدة" فأسسوا لجنة تحضيرية كان من أبرز مهماتها التهيؤ لعقد المؤتمر .. وفعلاً أثمرت جهود العمال بعقد المؤتمر في مدينة لايبزك، وأعلن عن تشكيل " اتحاد العمال الالمانى العام " وأعتبر هذا الاتحاد منظمة سياسية أكثر مما هو اتحاد نقابي لأنه كان فرعاً تابعاً للحزب الاجتماعى الديمقراطى الالمانى، إلا أنه مع ذلك كان اتحاداً مكزياً على نطاق ألمانيا قد قدم " خدمات جليلة للحركة النقابية الالمانية".

كانت فرنسا إحدى الدول المتقدمة في التطور الرأسمالي، و في عام 1765م وaban حكم (لودفيج الخامس عشر) تمت تصفية الجمعيات الحرفية .

وعندما قامت الثورة الفرنسية الكبرى ، منعت الجمعيات الحرفية وأعقبت هذه الإجراءات قوانين صدرت عام 1791م تحرم الاتحادات وتمنع الاضرابات، كما انها وقفت بشكل تام ضد زيادة الاجور، لقد كانت فترة 1830 م في فرنسا مشابهة بالتي حدثت في بريطانيا تقريباً حيث قام العمال بتحطيم الآلات والمكائن في العديد من المعامل لا سيما بعد الثورة الفرنسية الكبرى التي لم تحقق الديمقراطية وانتهت بحصرها في نطاق ضيق، وترافق مع هذا الوضع زيادة بؤس وشقاء وتردي حالة الجماهير الكادحة أثناء سيطرة " الرأسمالية الحديثة" ولم تشمل أي اجراءات أو اصلاحات الطبقة العاملة فتمردت على هذا الواقع وقامت باضرابات عديدة، طالبت بحقوقها المشروعة لكن الحكومة كما هو معروف ردت على هذه الاضرابات باعتقال الآلاف من العمال مستندة على قوانين قاسية صدرت لهذا الغرض فحكم على سبعة آلاف عامل بالسجن ما بين عامي 1825 – 1847م.

لقد سجل التاريخ في تلك المرحلة ابرز الاضرابات، اضراب عمال النسيج في مدينة ليون عام 1831م حيث اشترك فيه اربعون ألف عامل وانتصر العمال على القوى المسلحة الحكومية خلال المصادمات الكبيرة التي حدثت بينهما، وتمكن العمال من احتلال المدينة لعدة ايام، كما حدثت موجة من الاضرابات المستمرة امتدت ما بين 1790 – 1830م .

ان الطبقة العاملة الفرنسية تطورت واتسعت كماً ونوعاً " وعلى سبيل المثال بلغ عدد عمال الصناعات النسيجية فقط حينذاك 300 ألف عامل" وبنتيجه تردي أوضاع الطبقة العاملة قام العمال في عام 1864م بالتوقيع على " رسالة الستين عامل" التي تم نشرها، يطالب الموقعون عليها " القيام بأعمال سياسية مستقلة بالطبقة العاملة وبحق التنظيم

النقابي" إلا أن نابليون الثالث قام باستخدام قانون صادر في عام 1761م ينص أيضاً على محاربة الاتحادات، وعلى ما يبدو أن الرأسماليين الكبار في أوروبا كانوا يستفيدون من خبرة بعضهم البعض في سن مثل هكذا قوانين متشابهة تستخدم في الأوقات الخطرة على مصالحهم.. فلم تقف النقابات مكتوفة الأيدي امام الاجراءات التي حاول نابليون الثالث تطبيقها واستمرت بالتصدي لها ولقد ازدادت قوة يوماً بعد آخر بوقوفها ضد الاعمال الارهابية والقمعية التي مورست ضدها.

وبالرغم من المنع الصادر بحقها باعتبارها غير شرعية بحكم القانون السابق، وبعد هزيمة نابليون الثالث في الحرب مع ألمانيا هبت الجماهير الشعبية محطمة الامبراطورية القيصريّة الثالثة وقامت باعمال ثورية جبارة في أيلول 1850م واعلنت الجمهورية وتألّف حكومة مؤقتة سميت بحكومة " الدفاع الوطني" ولقد اشترك الجمهوريون المعتدلون في الحكومة إلى جانب الملكيين، إلا أن هذه الحكومة " سلكت سبيل الخيانة الوطنية والتآمر والغدر مع العدو الخارجي" وسرعان ما خان القادة أهداف الثورة، فساد التذمر والسخط بين الجماهير وثار عمال باريس وقاموا في 15 شباط 1871م بالسيطرة على المدينة وكونوا الكومونة التي رفعوا علمها على دار البلدية في 18 آذار 1871م.

ان الكومونة كانت بحق أول دولة حملت روح الطبقة العاملة ولكنها انتهت بعد شهرين ونصف فقط، وكان لفشلها أسباب عديدة، أما النقابات فقد شاركت في جميع الاعمال الانشائية والدفاع عن باريس وتنظيم

الانتاج على أساس تعاوني وإدارة المصانع التي هرب أصحابها بعد الانتفاضة إلى فرساي معقل الحكومة  
الديرجازية وحلفائهم..  
لقد نظمت النقابات 43 جمعية تعاونية و7 جمعيات استهلاكية خلال حكم الكومونة القصير.